

الإثنيون 18-01-2010

871-يوم إبداع على الشخصي : الحرية والجنون

مقدمة :

انتهت مقتطفات الطلقات عن الحرية، وهي التي انطلقت من استيعابي دروس مرضى، والتي نشرتها في كتابي حكمة الخانين (سنة 1980)، وقد بلغت عشر حلقات، أضيف إليها ما يتسر من تحديث، وفقرات جديدة.

ثم تذكرت فجأة تلك الأطروحة التي تكرم أ.د. جابر عصفور بدعوتي للكتابة فيها في مجلة "فصول"، ونشرت في مجلة فصول- المجلد السادس - العدد الرابع 1986 ص(30 - 58) ثم ضمنيتها كتابي "حركية الوجود وتجليات الإبداع" الذي نشره المجلس الأعلى للثقافة في (سنة 2007)، ووجدت أن بهذه الأطروحة ما يكمل الرؤية، فقررت أن أقتطف منه بعض فقرات لأقدمها للأصدقاء في زاوية إبداعي الخاص. لا يجوز أن تنزع بعض أجزاء مثل هذه الأطروحات أو الفروض من سياقها، ولكن دعونا نرتكب بعض ما لا يجوز هذا، لعلنا نربط بين الحرية كما تناولناها خلال عشر نشرات، بما يسمى الإبداع، بأن نقتطف ما يلي من الفصل الثالث بعنوان "عن الحرية والجنون والإبداع"، من كتاب حركية الوجود وتجليات الإبداع. (التزمت هذه المرة ألا أضيف حرفاً للمقتطفات، أو أعدل كلمة، وأوصي من يجد صعوبة أو يريد أن يستزيد أن يرجع للكتاب في الموقع "حركية الوجود وتجليات الإبداع").

3- الحرية والجنون:

ثم ننتقل إلى الجنون لنجده أيضا يقف متحديا في بؤرة إشكالية الحرية فهو من ناحية: يعلن القدرة على الاختلاف على حساب أي مكسب، وباقتحام أي مجهول، فهو بذلك أحد مظاهر الحرية في قصوى قدراتها الاقتحامية .

ومن ناحية أخرى: هو انسحاب كامل من كل المقومات الضرورية لاختبار حقيقة الحرية في مواجهة الآخر/ والواقع .

وهو من ناحية ثالثة: استسلام للداخل القابع في الظلام عادة، بما يؤدي إلى نفى الحرية، ليتركنا في مواجهة الوجود الخاوي إلا من التناثر المختلط المرجح في المحل.

بإيجاز يمكن إعادة الصياغة بألفاظ أخرى تقول:

"إن الجنون يخرق كل حاجز، ويعيش كل تجاوز، ويقفز فوق أسوار اللغة بلا لغة، وهو يلعب بالزمن، لا يتبعه، ولا يقع فيه، لكنه في نفس الوقت هو ينتهي إلى هلامية ساكنة، حتى لو تخرجت في مكائها، وكأنها تتحرك. إن الجنون آخر الطليق هو في واقع دائر في محله في انغلاق دوائري متناثر، فلا هو حر ولا هو طليق.

هكذا ينفي الجنون، الذي يبدو لأول وهله وكأنه الحرية الكاملة، ينفي الحرية تماما وهو يجتثها من جذورها. مع أن الحرية في جوهر حركيتها تبدو حتمية وهي تسمح باختيار الجنون، ففجأة في نفس الوقت أن الجنون هو في النهاية مقصلة الحرية".

الجنون هو فعل الحرية لتستحل.

إذا كان الجنون اختيارا في مستوى معين من الوجود، فإنه ليس اختيارا للحرية وإنما هو نفسه الحرية القاضية على نفسها، وهذه المأساة هي من أعظم إشكالات الجنون فهما، وعلاج.

في الجنون: الحرية تنتحر اختيارا.

الجنون يختار أن يجرم نفسه من قدرته على الاختيار.

هذا على الرغم من أن الشخص العادي عادة ما يستبعد، بل يستنكر فكرة أن يكون الجنون اختيارا على أي مستوى من الوعي.

الشخص العادي لا يملك (بوعيه الظاهر) أن يختار الجنون.

الإنسان العادي (جدا) يبدو وكأنه لا يستطيع (أعجز من) أن يجن.

ومع ذلك فالممارسة اليومية تُعلّمنا كيف أن الجنون - مجنونه- إنما يعلن أن له طريقا آخر، وأنه استطاع على الرغم من كل شيء أن يرفض السائد الآمن، وأن يتحدى، ليسلك -منفردا- الصعب المجهول (ثم يفشل).

- نبهنا في الفصلين السابقين على ضرورة تحديد مضمون لفظ الجنون كما يستعمل في كل مداخلة (الفصل الأول هامش (11) وطوال الفصل الثاني). ويكفي أن أكرر هنا أنه لا بد من استبعاد ما يسمى المرض العقلي العضوي التشريحي للأسباب سالفه الذكر في الفصلين السابقين، كما أن "الفصام" هو الممثل الأساسي لما يسمى الجنون في هذه الدراسة دون استبعاد الذنانات الأخرى مثل الذهان الوجداني والذهان البارنوي.

- كما أني سوف أستعمل لفظ الحرية، في البداية،، استعمالا فضفاضا كما يوحي به ما شاع عنه، لا كما قد ننتهي إليه في هذه الدراسة.

- خالدة سعيد: حركية الإبداع (الشعر وعمات الجسد)
ص62،61 دار العودة 1979 بيروت.

تقتطف خالدة سعيد قول أنسى الحاج " بالجنون ينتصر التمرد، ويفسح المجال لصوته كي يسمع" ثم تعقب: هذا ما يقوله...." الجنون هو الوصمة التي يحملها من اختار أن يكون حرا".

ورغم أن كلمة الحرية هنا لا تعنى بالضيظ ما ندور حوله الآن، وعلى الرغم من أن خالدة سعيد قد وصفت الخلق عند أنسى الحاج أنه "لاغائي"، وأن كلمة خلق لا تناسب شعره، وعلى الرغم مما ذهبت إليه حينما يقترّب من نفي الإرادة عن هذا النوع من الخلق "ما يسمى: عادة بالخلق ما هو عند أنسى الحاج إلا فعل ضروري لوقف الاختناق" رغم كل ذلك فإن الاختيار سرعان ما قفز متحديا من أنسى إذ يقول: "والشعر قهر مشدود التواجد يخنقه الحنين"...."إن أمام هذه المحاولة إمكانيّتين إما الاختناق أو الجنون"

وهكذا، وقعنا بكل وضوح في بؤرة إشكالية الإبداع والحرية